جهود النقاد القدامى في معالجة وتنقية الشعر "دراسة نقدية"

أ.إسماعيل محمد علي الصابري

تمهيد:

لقد كان النقد في أول نشأته ذاتياً، فطرياً، بسيطاً، ساذجاً، لا يخرج في جملته عن أحكام عامة، خالية من التعليل، يطلقها النقاد حين سماعهم لأشعار الشعراء، وخطب الخطباء نتيجة انفعالهم وتأثرهم لما يسمعون من النصوص الأدبية.

وهذه الأحكام النقدية تمتاز بالإيجاز، والعموم، وعدم التعمق؛ لأنها مبنية عن الانفعال الشخصي والتأثر الذاتي، ثم أصبح يتطور، فظهرت مجموعة من النقاد كانوا حريصين على المحافظة على تراث أمتهم بوضع بعض المقاييس واعتمادهم على بعض الأسس النقدية، ولقد كان هدف النقاد القدامى يتمثل في تنقية الشعر وتصحيح العربية، فكل ملاحظاتهم على بعض الرواة أو الشعراء كان بدافع الحرص على صحة الشعر ونسبته، وكان ذلك كله بسبب مكانة الشعر والشعراء عند العرب؛ لأنه كان يحمي القبيلة ويدافع عنها وعن أعراضها باللسان، يقول (ابن رشيق القيرواني)[1] في هذا السياق: "كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الأعراس، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد، أو شاعر ينبغ، أو فرس تنتج".[2]نشأ الشعر العربي مرتبطاً بالعمل من ناحية، وبالغناء والموسيقى من ناحية أخرى، ومن ذلك ما يقوم به العمال والفلاحون في مواسم الحصاد للتهوين من مشقة العمل، وقد يأتي الشعر للتحريض وشخذ الهمم والضرب بقوة كقول الشاعر "قيس بن عاصم" يوم كلاب الثاني:

لمَّا تَولّوا عُصباً هَوارِباً أقْسمَتُ لا أطْعن إلاَ رَاكِبا
إنِّي وَجدْتُ الطْعَن فِيهِم صَائِباَ[3]

إن القصيدة العربية قديمة العهد، وقد ربط بعضهم[4] نشأتها بسجع الكهان، واتخاذ العرافين السجع الموزون وسيلة للتعبير عن تنبؤاتهم.

وذهب آخرون[5] إلى أبعد من ذلك في قضية "أولية الشعر العربي"، فمنهم من نسب بعض الأشعار إلى الملائكة، ومنهم من نسبها إلى أبينا آدم – عليه السلام – والعمالقة وعاد وثمود...

من خلال هذا الطرح أراد الباحث التأكيد على قدم الشعر العربي، وأن العرب كانوا على درجة من التقدم العلمي والأدبي، يقول الشاعر الإيطالي "بترارك" "يا عجباً– لقد استطاع شيشرون أن يكون خطيباً بعد ديموستين، واستطاع فرجيل أن يكون شاعراً بعد هوميروس ... فهل قُدِر علينا أن لا نؤلف بعد العرب؟[6]

وتقول "هونكة" المستشرقة الألمانية في كتابها "شمس العرب تسطع على الغرب"...: "استيقظ الفكر الأوروبي من سباته، الذي دام نحو عشرة قرون على صوت قدوم العلوم والآداب والفنون الإسلامية...".

كما أيد "غوستان لبون" نفس الانطباع السابق، يقول في كتابه "حضارة العرب": أورابا مدنية للعرب بحضارتهم، فالعرب هم الذين فتحوا لها ما كانت تجهلهُ من المعارف الفلسفية والعلمية والأدبية، وعن طريقهم اهتدى الغرب إلى تراث الإغريق وكشف ماضيه[7].

ومع ذلك فقد تسرَّب الشك في صحة نسبة الشعر العربي، فهل ما وصل إلينا من الشعر العربي كله صحيح النسبة إلى عرب الجاهلية، جاء ممثلاً لحياتهم معبراً عما كان يجري بينهم من وقائع، مصوراً ما كان يقع فيهم من أحداث؟ أم كله منحول موضوع عليهم، وضعه الوضاعون واختلفه المفترون لأغراض مختلفة يتصل بعضها بالعصبيات الهائجة، بينما يتصل البعض الآخر بالدين، أو القصص، أو الرواة؟ أم أن بعضه صحيح لا سبيل إلى نكرانه ولا مدعاة للطعن فيه"[8].

ذهب ابن سلام إلى القول: وكان ممن أفسد الشعر (وهجنه) [9] وحمل كل غثاء[10] منه، محمد بن إسحاق بن يسار، وكان من علماء الناس بالسير، قال الزهري: لا يزال في الناس علم ما بقى مولى آل مخرمة، وكان أكثر علمه بالمغازي والسير وغير ذلك، فقبل اناس عنه الأشعار، وكان يتعذر منهم ويقول، لا علم لي بالشعر، أتينا به فأحمله، ولم يكن ذلك له عذرا فكتب في السيّر أشعر الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط، وأشعار النساء فضلاً

عن الرجال، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود، فكتب لهم أشعاراً كثيرة، وليس بشعر، إنما هو كلام مؤلف معقود بقواف، أفلا يرجع إلى نفسه فيقول: من حمل هذا الشعر؟ ومن أدّاه منذ آلاف السنين، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ القَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [سورة الأنعام: 45]، أي لا بقية لهم، وقال أيضاً ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأُولَى وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى ﴾ [سورة النجم: 50-51]، وقال في عاد ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴾. [سورة الحاقة: 8]، وقال: ﴿وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً﴾ [سورة الفرقان: 38] وقال ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللّهُ ﴾ [سورة إبراهيم: 9] [(11)].

يستعمل ابن سلام موهبته الأدبية المتمثلة في إلمامه بمذاهب الشعراء، فيذكر من أولئك المفسدين محمد بن إسحاق بن يسار الذي نقل أشعاراً عن عاد وثمود، وقد نسيَّ أن القرآن نفى وجودهم وقطع دابرهم وأن الله وحدهُ هو الذي يعلم أسرارهم وأخبارهم.

ولإنجاز هذه الدراسة والإجابة على تلك التساؤلات تتبع الباحث قراءة تعتمد الاستقراء والنقد الموضوعي لمحاور البحث التي هي:

أولاً- تعريف الأخذ أو السرقة (الانتحال).

ثانياً- أسباب الأخذ ودوافعه.

ثالثاً- المقاييس التي اعتمدها النقاد في معرفة صحيح الشعر من موضوعه.

وأخيراً خُتِمَ البحث بأهم النتائج، والتوصيات، وقائمة للمصادر والمراجع الهامشية.

من أهم القضايا النقدية التي أثارها (ابن سلام)[(12)] في كتابه (طبقات فحول الشعراء) قضية الانتحال، فقد نسب إلى كثير من الشعراء القدامى بعض مما لم يقولوه، فتنبه علماء الشعر إلى ذلك، لوضوح التباين بين هؤلاء الشعراء الذين نسب إليهم، فظل بعضه الآخر خفياً لبراعة صانعيه، وقدرتهم على إضافة شعر مصنوع على نهج الشعراء الذين نحلوهم هذا الشعر يقول ابن سلام: "وفي الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه، ولا حجة في عربيه، ولا أدب يستفاد، ولا معنى يستخرج، ولا مثل يضرب، ولا مديح رائع، ولا هجاء مقذع، ولا فخر معجب، ولا نسيب مستطرف، وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب، لم يأخذوه عن أهل البادية، ولم يعرضوه على العلماء".[(13)]جعل ابن سلام من شروط الشعر الصحيح هو أن

يؤخذ من أهل البادية بعد تمحيصه وعرضه على علماء الشعر وهي منهجية صحيحة لنقد الشعر.

أولاً- الأخذ أو السرقة (الانتحال):

ورد في تعريف الانتحال في لسان العرب لابن منظور قوله: "وانتحل فلان شعر فلان أو قول فلان إذا ادعاهُ أنه قائله وتنحله: ادّعاه وهو لغيره، وفلان ينتحل مذهب كذا وقبيلة كذا إذا انتسب إليها، ويقال نُحل الشاعر قصيدةً إذا نسبت إليه من غير قوله، وقال الأعشى في الانتحال:

فَكيفَ أنا وانْتِحَالي القَوافيِ بَعْدَ المَشِيب كَفَى ذَاك عارا[14]

اما في الاصطلاح: اِنتحَال. مصدر انتحل، محاكاة شخص للغة ومعاني مؤلفٍ آخر وتقديمها، كما لو كانت من بنات أفكاره.

نحل الشّخصُ القول: نسبه إلى نفسه وليس بقائله، والنَّحْلُ فِي الشِعْر: هو قول الشعر ونسبته إلى غير قائله.

مُنْتَحَل: اسم مفعول من انتحل: مُنْتَحَل: صفة يطلق على أيّ كتاب أو مؤلَف منسوب إلى غير مؤلّفه أو زمنه[15].

أما عبد القاهر الجرجاني[16]فينحى منحاً آخر في تعريفه الذي يتمثل في الأخذ والسرقة بسبب النقص والحاجة قوله: "بأن ينحل الوضيع صفة من الرفعة هو منها عار، أو يصف الشريف بنقص وعار، فكم جواد بخّله الشعر، وبخيل سخّاه، وشجاع وسمه بالجبن، وجبان ساوى به الليث، ودنيّ أوطأه قمة العيوق، وغبي قضى له بالفهم، وطائش ادعى له طبيعة الحكم".[17]

ضرب الجرجاني مثالاً ساطعاً للأخذ بسبب الحاجة، كأن يسرق الرضيع من صفات النبل والشجاعة التي قيلت في غيره، ويلصقها في نفسه، وقد يأتي راوية أو شاعر ما بأبيات أو قصيدة ثم ينحلها شاعراً آخر لغرض الإيقاع به وهذا كثير، وهو ما أكدهُ الجرجاني في تلك الصورة الرائعة.

وقد وصف الفرزدق غيره النحل:

إِذاَ ما قُلتُ قَافِيةً شَرُوداً تَنْحَلها اَبْن حَمْراء الْعِجَانِ[18]

ولعل قولالأبيرد اليربوعي:

فتى يشتري حسن الثناء بماله إذا السنة الشهباء أعوزها القطر

قريب من قول أبونواس:

فتى يشترى حسن الثناء بماله ويعلم أن الدائرات تدور[19]

وكذلك ورد في المعجم الوسيط تعريف في مادة انتحل الشئ : ادعاه لنفسه وهو لغيره.

يقال: انتحل فلان هذا الشعر وهذا الرأي ومذهب كذا، انتسب إليه ودان به، (تنحل الشيء): انتحله"[20].

وهناك من فرّق بين الانتحال و الإنحال :

1. باب الانتحال: وهو أن يأخذ الشاعر أبياتاً لشاعر آخر كما فعل جرير حين أخذ قول المعلوط السعدي.
2. باب الإنحال: وهو أن يقول شاعر أو راوية قصيدة، ثم ينحلها شاعراً آخر كما كان يفعل حماد الراوية، وتحدث عن خلف الأحمر وعن نحله الشعر لتأبط شراً والشنفرى وغيرهما".[21]
3. التنحيل: وهو أن يعطى الشاعر شعر نفسه لغيره دون أن يعلم المنحل أو يرضى؛ لأنه لو علم لكان مرافدة كما فعل (ابن الرومي) عندما قال شعراً ونحله بشاراً...، ثم إن التنحيل كالانتحال ليس نصين تصح المقارنة بينهما وإنما هو نص واحد".[22]

يلاحظ القارئ كيف أن النقاد القدامى تتبعوا الفروق اللغوية بين المصطلحات التي تحمل معنى الانتحال، وهذا دليل آخر يُحسب للنقاد ويُعد مقياس براعة وإبداع.

ثانياً- أسباب الأخذ أو السرقة أو الانتحال ودوافعه:

1- بُعد عهد التدوين وانشغال العرب بالدعوة والفتوحات:

قال ابن سلاّم: قال ابن عون عن ابن سيرين، قال: قال عمر بن الخطاب: (كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه)، فجاء الإسلام، فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهتْ عن الشعر وروايتهِ فلما كثر الإسلام، وجاءت الفتوح، واطمأنت العرب بالأمصار، راجعوا رواية الشعر، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب، وألفوا ذلك، وقد هلك من العرب ما هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقل ذلك، وذهب عليهم منه كثير"وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم، فأرادوا أن يلحقوا بمن لهُ الوقائع فقالوا على ألسنة شعرائهم فزادوا في الأشعار، ويقول أيضاً: "مما يدل على ذهاب الشعر وسقوطه قلة ما بقي بأيدي الرواة المصححين لطرفة وعبيد، اللذين صح لهما قصائد بقدر عشر، وإن لم يكن لهما غيرهن، فليس موضعهما حيث وضعا من الشهرة والتقدمة، وإن كان ما يروى من الغثاء لهما، فليس يستحقان مكانهما على أفواه الرواة، ونرى أن غيرهما قد سقط من كلامه كلام كثير، غير أن الذي نالهما من ذلك أكثر وكانا أقدم الفحول، فلعل ذلك لذاك (فلما قل كلامهما، حمل عليهما حمل كثير)".[23]ذكر ابن سلام من الأسباب التي أوجدتْ هذه الظاهرة، منها انشغال العرب بالجهاد وحفظ القرآن، ثم محاولة العودة إلى تدوين الشعر دون ضابط حقيقي، كالأخذ من أفواه الرواة الثقاة، أو من الدواوين الصحيحة، أضف إلى ذلك تنافس القبائل العربية بالأحساب والأنساب ممن حمل بعضهم على الأخذ والزيادة في الأشعار.

2- من الأسباب التي دعت للانتحال أهمية الشاعر للقبيلة:

لما كان الشاعر لسان القبلية والمدافع عن حياضها وأعراضها كان لابد من وجود ذلك الشاعر، فكان سبباَ جوهرياَ يدعو القبائل التي لم تحظ بشاعر أن تنتحل الأشعار، ونكرر هنا قول ابن رشيق القيرواني عن أهمية الشاعر: "إن القبيلة من العرب إذا نبغ فيه شاعر أتت القبائل فهنأتها وصنعت الأطعمة، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الأعراس، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبغ أو فرس تنتج...

3- مجون الرواد واسرفهم فى العبث واللهو:

يقول المفضل الضبي[24] وهو معاصر لحماد الراوية[25]: " قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبداً، فقيل له : وكيف ذلك أيخطئ فى روايته أم يلحن ؟ قال ليته كان كذلك، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله في شعره، ويُحمل ذلك عنه في الآفاق، فتخلط الأشعار..... ولا يميز الصحيح منها إلا أن عند عالم ناقد وأين ذلك ؟"[26]

مرة أخرى ينجح المفضل الضبي وهو أبرز أئمة النقد العربي القديم في فضح سلوك أحد الرواة المتهمين بإفساد الشعر، بسبب مهارتهم اللُغوية، ومن ثمَّ التدليس وخلط الأشعار.

4- ومن أسباب الانتحال **الحقد والغيرة** ومن ذلك ما نُسِبَ إلى ذي الرمة " أنه كان يتشبب بمي بنت طلبة بن قيس ابن عاصم المنقري، وكانت كنزة أمةً مولودة لآل قيس بن عاصم..... فقالت كنزة محاولة بذر نوازع الشر بين الشاعر وعشيقته:

عَلَى وَجْه مَيٍ مَسْحَة مِنْ مَلاَحَةٍ وتَحْت الثِّياب الْخِزيُ، لو كَان بَادِيا

ألَمْ تر أنَّ الْمَاء يخبثُ طَعْمهُ إن كَان لوّن الْماءِ أبيض صافيا[27]

ونحلتها ذي الرمة، فامتعض من ذلك، وحلف بجهد أيمانه ما قالها، قال : كيف أقول هذا، وقد قطعت دهري وأفنيت شبابي أشبب بها وأمدحها، ثم أقول هذا؟ ثم اطلَّع على أن كنزة قالتها ونحلتها إياه.

ثالثاً- المقاييس التي اعتمدها النقاد في معرفة صحيح الشعر من موضوعه:

هناك ضوابط ومقاييس اتخذها العلماء النقاد في تمييز الشعر الصحيح النسب والموضوع منه، والحقيقة أن الفضل يرجع إلى النقاد العرب القدماء من أمثال الأصمعي[28] والجمحي وابن قتيبة[29] وغيرهم ممن دققوا في الشعر ومحصوه جيدا، وهؤلاء لهم الخبرة الكافية في مجال الشعر والقدرة على تذوقه والمفاضلة بين نص ونص، والموازنة بين شاعر وشاعر.

المقياس الأول:

الذوق الشعري الذي اكتسبوه على علم ودراية، يقول ابن سلام : وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم، كسائر أصناف العلم والصناعات، منها ما تثقفه العين، ومنها ما تثقفه الأذن، ومنها ما تثقفه اليد، ومنها ما يثقفه اللسان.

ويقول في موضع آخر " وجدنا رواة العلم يغلطون في الشعر ولا يضبط الشعر إلا أهله"، وقد حملت كتب الأدب العديد من المواقف النقدية، كتحكيم النابغة في سوق عكاظ، وتحكيم زوجة أمرئ القيس بينه وبين علقمة بن علاثة الذي سُميّ فيما بعد علقمة الفحل.

أن أول من حاول وضع معيار للمقارنة بين الشاعر الفحل وغير الفحل، وعمل موازنة بين ثلاثة من شعراء الجاهلية، وحاول أن يصنف الشعراء بحسب إجادتهم في أنواع الوصف هو الأصمعي عبد الملك بن قريب ثم الحكم على أحدهم بالإجادة دون الغير في كتابه (فحولة الشعراء) الذي يعتبر كتاب النقد الأول في نقد الشعر والشعراء العرب.

نورد بعض آرائه في الشعر المنحول:

1. يقول في الفرزدق: "أخبرنا ابن دريد، قال أخبرنا أبو حاتم، قال سمعت الأصمعي يقول: (تسعة أعشار شعر الفرزدق سرقة، وكان يكابر".[30]
2. وقال الأصمعي: سمعت خلفاً يقول: أنا وضعت على النابغة هذه القصيدة التي أولها:

خَيلٌ صيامٌ وخَيلٌ غَيرُ صَائِمةٍ تَحتَ العِجَاجِ وأُخْرى تَلُعَكُ اللُجُما [31]

قصد الأصمعي تعرية خلف الأحمر الراوية المعروف دون مجاملة، وهنا يصدق قول ابن سلام "وجدنا رواة العلم يغلطون في الشعر ولا يضبط الشعر إلا أهله.

المقياس الثاني :

إجماع الرواة على صحة الشعر أو العكس "فالرواة يتفاوتون ثقة ... فمنهم الثقة المحقق، ومنهم من يتعجل في التصديق، وبعضهم يتقلب في رواياته مع الأهواء، فينظم الأبيات على لسان بعض الجاهليين وينسبها إليهم لمطمع مالي، أو غرض آخر، وأشهر ما فعل ذلك حماد وخلف، وهما مرجع رواة الأشعار، فكان حماد كثيراً ما يصنع الأبيات أو القصيدة

ينسبها إلى شاعر من قوم، يريد أن يتزلف إلى رجل منهم صاحب نفوذ أو سيادة في عصره، كما فعل في ولاية خالد بن عبدالله القسري" [32] فما أجمع عليه النقاد والرواة بأنه صحيح النسبة فهو صحيح لا مجال للشك فيه، وأما ما هو غير ذلك فهو محل شك وتدقيق يقول ابن سلام: "وليس لأحد إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شي منه أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن (صحفي)، وقد اختلف العلماء في بعض الشعر، كما اختلف في سائر الأشياء، فأما ما اتفقوا عليه، فليس لأحد أن يخرج منه[33].

منهجية علمية عالج بها نقاد القرون الهجرية الأولى مسألة صحة نسبة الشعر، وهي إجماع الرواة على صحية، ومن ثَمَّ فلا مجال للشك فيه بعد ذلك، كما أنَّ الرواة تنقسم قسمين (رواة ثقاة – رواة وضاعين).

فمن الرواة الثقاة "أبوعمر بن العلاء، يقول ابن سلام "سمعت يونس يقول: لو كن أحد ينبغي أن يؤخذ بقوله كله في شيء واحد، كان ينبغي لقول أبي عمرو بن العلاء في العربية أن يؤخذ كله، ولكن ليس أحد إلا وأنت أخذ من قوله وتارك"[34]، وكان الأصمعي وأبوعبيدة من أهل العلم، وأعلم من ورد علينا من غير أهل البصرة: المفضل ابن محمد الظبي الكوفي"[35].

المقياس الثالث :وجود الشعر في ديوان القبيلة، يُعد هذا المقياس من الضوابط الهامة في التمييز بين الصحيح والمشبوه، إذ لا مجال للشك فيه بعد ذلك.

المقياس الرابع: ومعرفة مذهب الشاعر في شعره، من الأمور المهمة معرفة مذاهب الشعراء، وطريقتهم التي يسيرون عليها حتى تتم عملية النقد والتمييز بنجاح، ومن ثَمَّ إصدار الأحكام النقدية الصحيحة، يقول ابن سلام : " وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا ولا ما وضع المولدون، " ثم يأتي بالدليل قوله "أخبرني أبو عبيدة أن داود بن متمم بن نويرة قدم البصرة في بعض ما يقدم له البدوي من الجلب والميرة، فنزل النحيت، فأتيته أنا وابن نوح العطارى فسألناه عن شعر أبيه متمم، وقمنا له بحاجته وكفيناه ضيعته، فلما نفذ شعر أبيه، جعل يزيد في الأشعار ويضعها لنا، وإذا كلام دون كلام متمم، وإذا هو يحتذى

على كلامه، فيذكر المواضع التي ذكرها متمم والوقائع التي شهدها، فلما توالى ذلك علمنا أنه يفتعله" [36]

مرة أخرى يستخدم ابن سلام خبرته وذوقه ومهارته الفنية، فيمير بين شعر الوالد متمم بن نويرة وابنه داود، دون عناء مما يدلل على خبرته وثقافته الواسعة.

ومن ذلك ما وصف به الفرزدق علقمة الفحل من أن شعره عليه طابعه الخاص بحيث لا يستطيع أحد أن ينحله، فإذا إدعاهُ غيره عرف الناس أنه ليس لمن أدعاهُ.

قال الفرزدق :

وَالفَحْلُ عَلْقَمَةُ الذَّي كَانَتْ لَهُ حُلَلُ المُلُوكِ كَلاَمُهُ لاَ يُنْحَلُ[37]

وأخُو بَنِي أسَدٍ عبيدِ إذَ مَضى وأبُو دَاودْ قَوْلَهُ يتنْحلُ

ومن النقاد العلماء (ابن قتيبة)المتوفى سنة 276هـ تقريباً:

الذي غالباً ما يستعمل خبرته ويقارن بين شعر الإسلام وما يتميز به وشعر الجاهلية فيذكر بيتاً للبيد هو قوله:

وكلُّ أمْرِئٍ يَوْماً سَيَعْلمُ سَعْيهُ إذَا كُشِّفَتْ عِندَ الإلَهِ المَحْاصِلُ[38]

ثم يعقب عليه بقوله: "هذا البيت يدل على أنه قيل في الإسلام، وهو شبيه بقول الله تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾[العاديات آية: (10)]، أو كان لبيد قبل إسلامه يؤمن بالبعث والحساب، ولعل البيت منحول".[39]

هنا يظهر استخدام ابن قتيبة لحدسه الواسع ومهارته، حيث فهم أنَّ المعاني في البيت الشعري معانٍ إسلامية اخبرنا بها القرآن الكريم، ولكن القائل جاهلي، وهنا تبرز الريبة والشك في نسبة البيت الشعري للبيد الجاهلي.

وكان لابن رشيق القيرواني موقف من القبيلة والشاعر، وقد أورد بعض الأحكام من الشعر المنحول نذكر منها[40]:

1. قول جرير للفرزدق، وكان يرميه بانتحال شعر أخيه الأخطل ابن غالب:

سَتَعْلمُ مِنْ يَكُون أبُوه قِيْناً وَمَنْ كَانتْ قَصائِدهُ اجْتِلاَبا

2. وقوله أيضاً: "والانتحال عندهم قول جرير:

إنَّ الذّين غدُوا بِلُبكَ غَادَرُوا وَشلا بِعْينِكَ لاَ يَزالُ مُعْيناً

غيضّنَ مِنْ عَبراتِهن وَقُلْنَ لِي مَاذا لَقِيتَ مِنْ الْهَوى وَلقِينَا

فإن الرواة مجمعون على أن البيتين (للمعلوط السعدي) انتحلها جرير".

3. وانتحل أيضاً قول طفيل الغنوي:

لمَّا ألْتَقَى الْحيانّ الْقِيتُ الْعَصَا وَماتَ الْهَوى لمَّا أُصِيبَ مقاتِله

ولذلك قال الفرزدق:

إنْ تذْكُروا كَرمي بِلؤم أَبِيكُمُ وَاوابِدي تَتَنَحّلُوا الأشعَارَا

هذه بعض مواقف ابن رشيق من الشعر الموضوع، مدللاً ذلك بالحجة والبراهين الساطعة واتخاذ مقاييس المقارنة الصحيحة بين أشعار الشعراء.

المقياس الخامس:

تطابق الشعر مع أسلوب الشاعر، قال بن سلام: "أخبرني أبوعبيدة عن يونس قال: قدم حماد البصرة على بلال بن أبي بردة وهو عليها، فقال: أما أطرفتني شيئاً: فعاد إليه فأنشده القصيدة التي في شعر الحطيئة مديح أبي موسى، قال: ويحك: يمدح الحطيئة أبي موسى ولا اعلم به، وأنا أروي شعر الحطيئة؟ ولكن دعها تذهب في الناس[41]، إذ للشعر أسلوب خاص تُصاغُ فيه الأفكار أو المباني، وهو أسلوب يقوم على إثارة الانفعال واستمالة

المتلقي تجاه موقفٍ من المواقف، وهذه الصياغة لا تكون إلا بإقامة الوزن المناسب، وانتقاءِ اللفظ المناسب لها في جودة سبك وصنعة، مع وفرة تصوير وخيال[42].

إنَّ التصوير الأدبي يبرز كل الحواس وكل الملكات، والشاعر المصور يربط بين الأشياء، فيثير العواطف الأخلاقية والمعاني الفكرية، ويشعّ نور القلوب ونبض الحياة بالمشاعر والأحاسيس.

تُعد التجربة الشعرية ذلك الشكل الفني الذي تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر في سياقٍ بياني خاص، ليعبّر عن تجربته الشعرية الكاملة، مستعيناً في ذلك بطاقات اللغة وإمكاناتها في دلالة التركيب، وتمثيل الحقيقة والمجاز والتضاد وغيرها من وسائل التعبير الفني.

والسؤال هنا: كيف سيكون الحال مع من يعجز عن إتقان ذلك؟

والجواب يكمن في اللجوءِ إلى السرقات الأدبية والانتحال والوضع .

المقياس السادس:

تطبيق مبدأ الحياد في التعامل مع الشعراء وأنه لا فضل بين متقدم ومتأخر يقول **(ابن قتيبة):** "كلٌّ من أتى بحسن من قولٍ أو فعلٍ ذكرناهُ لهُ، واثنينا عليه، كما أن الردئ إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعهُ عندنا شرف صاحبهِ ولا تقدمه..."[43].

هذه النظرة النقدية الثاقبة من "ابن قتيبة" وضعت الأساس الصحيح للدراسات النقدية، في التعامل مع شعر الشعراء دون ميلٍ أو هوىً أو عصبية سواءً أكان للمتقدمين أو المتأخرين..

المقياس السابع:

مهارة النقاد وحذقهم في تناول موضوعات الشعر وقضاياهُ، حتى قالوا: اللفظ جسم وروحهُ المعنى، وارتباطهِ بهِ كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه، ويقوى بقوته... وإن لم تقابل الصورة الحسناء بما يشكالها ويليق بها من اللباس فقد بخستْ حقها، وتضاءلتْ في عين مبصرها"[44].

هذا النص ورد عند "ابن رشيق الفيرواني"، الذي ساوق بين اللفظ والمعنى وجعلهما مرتبطين كارتباط الروح بالجسم في أجمل صورة جسَّد فيها اكتمال القالب مع الجسم الموضوع فيه.

ويؤكد "عبدالقاهر الجُرجاني" على قوة الصنعة الشعرية الساحرة، وعلى قوة التخيل الذي يُوضح الصورة الشعرية فيصير بها: "الجامد الصامتُ في صورة الحي الناطق، والموات الأخرس في قضية الفصيح المعرب..."[45].

يظهر من الكلام السابق التأكيد على قوة الصنعة والخيال الشعري؛ لأنهما حسب رأي الجرجاني الأساس في إبراز الصورة الشعرية التي هي روح القصيدة العربية، ويتضح ذلك من خلال استخدامه للمترادفات حتى جعلت الميت الأخرس حياً ناطقاً، وهذا دليل آخر على تأصل قضية الذوق الأدبي لدى النقاد القدامى، وإلمامهم بأساليب الشعراء ومذاهب الشعر، فنجحوا بذلك في معرفة الصحيح من المنحول.

المقياس الثامن:

إعداد الشعراء إعداداً جيداً، "وللشعر أدوات يجب إعدادها قبل مرامه، منها التوسع في علم اللغة، .... والوقوف على مذاهب العرب في تأسيس الشعر والتصرف في معانيه في كل ما قالته العرب فيه حتى يبرز في أحسن زي وأبهى صورة...."[46].

وقد نهج "أبوهلال العسكري"[47] في آرائه تجاه المعاني فقال بأنها "مشتركة بين العقلاء، فربما وقع الجيد للسوقي والنبطي والزنجي، وإنما تتفاضل الناس في الألفاظ...."[48]، وعلى ذلك نستطيع التأكيد على أن النقاد القدامى نجحوا نجاحاً باهراً في تنقية الشعر العربي، حتى خرج بهذه الحُلة القشيبة الرائعة، متمثلاً في أبهى صورة شعرية تشد السامعين، وذلك باتباعهم ضوابط فنية ومقاييس نقدية ميزوا فيها بين الشعر الصحيح، وبين الموضوع الذي تدور حوله الشبهات.

إن كل نهضة شعرية في أمة تحمل تراثاً شعرياً راقياً متراكماً لابد لها من العودة إلى الينابيع الأصلية في الماضي؛ ولأن الماضي لا يحيا إلا في الحاضر، فلا بَّد إذاً بالاهتمام ولأخذ ما يصلح من التراث والاعتزاز بالموروث الثقافي، وعدم التشكيك بتراث

الأمة، والتشجيع على اقامة الندوات العلمية والمراكز البحثية، للمحافظة والرقي باللغة وتمرين ملكة الحفظ الجيد والذوق السليم، والرد على الطاعنين في صحة الشعر العربي بالأدلة والبراهين القاطعة.

كما يوصي الباحث بالقيام بعملية تخصيب المناهج الدراسية بمواضيع أدبية راقية، وقصائد شعرية تحمل قيمة فنية وتربوية لإصلاح النشء، والمطالبة بتشجيع البحاث في الآداب العربية عامة والليبية خاصة، لما لها من فوائد تعود على المجتمع وزيادة المستوى الثقافي للبلاد، إذ مقياس تقدم الشعوب يقاس بمدى ثقافة أبنائها.

الخاتمة

1- يُعد الشعر العربي من أخصب الفترات الشعرية على الإطلاق، وذلك من حيث الكمية، والجودة، والفصاحة.

2- الوضع الانتحال في الشعر كان موجوداً في أغلب الآداب العالمية من مثل الآداب اليونانية والرومانية القديمة، ويظهر بسبب من الأسباب التي تهيء له الظهور، وكذلك كان موجوداً في الشعر الجاهلي والإسلامي.

3- هناك معايير ومقاييس اعتمد عليها النقاد في معرفة صحيح الشعر من موضوعه، كانت ذات جدوى فحفظت تراث الأمة من العبث والضياع والشك، ولم يكن نقدهم للأشعار اعتباطياً مرسلاً، فقد ميزوا بين الصحيح الموضوع، ومن هذه المقاييس:

أ- وجود الشعر في ديوان الشاعر والقبيلة.

ب- مقارنة مذهب الشاعر في شعرهِ مع ما نُسب إليه.

ج- معرفة أسلوب الشاعر، والأغراض الشعرية التي يتناولها في الغالب، فمثلاً عُرِف امرؤ القيس" بغرض الغزل والمجون والطرديات، وزهير بالحكمة، وبرز النابغة في غرض المدح، وهكذا...

4- إنه إذا كان هناك رواة قد اتهموا بالوضع فقد كان بجانبهم رواة محققون ثقات قد رووا شعراً صحيحاً ليس من سبيل إلى الطعن فيه أو القول بعدم صحته.

5- لما كان الشاعر لسان القبيلة والمدافع عن حياضها وأعراضها كان لابد من وجود ذلك الشاعر، فكان سبباً في وضع الأشعار للشعراء ونحلهم إياها.

6- كانت جهود النقاد القدامى إيجابية مبعثها التدقيق في التراث الأصيل والتحقق من صحة نسبته، خاصة أن معظم النقاد القدامى هم من الأدباء والشراح، والمفسرين أهل اللغة والبيان، فأدلوا بدلوهم في هذا الخضم الهائل، ووضع الأحكام النقدية الصحيحة.

(وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب)

هوامش البحث:

(1)ابن رشيق القيرواني: الحسن أبوعلي، شاعر، أديب، نحوي، لُغوي، مؤرخ عروضي، ناقد، ولد بالمهدية سنة 330هـ، رحل إلى القيروان، توفي بها سنة 463هـ من تصانيفه: العمدة، تاريخ القيروان، ينظر: معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، المكتبة العربية دمشق، 1957م، لا ط، ج3، ص225.

(2)العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تأليف ابن رشيق القيرواني، تحقيق (محمد محي الدين عبد الحميد)، الطبعة الثالثة، 1963م، دار الجبل للنشر، ج1، ص65.

(3)الرجز نشأته أشهر شعرائه، جمال نجم العبيدي، مطبعة الأديب البغدادية، 1970، ص72.

(4)ينظر: امرؤ القيس حياتهُ وشعرهُ، أحمد مكي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1981، ص190، كذلك ينظر: دراسات نقدية، عدنان حسين قاسم، مطابع الإسكندرية مصر، ط1، ص129.

(5)ينظر: جمهرة أشعار العرب، أبوزيد القرشي، دار صادر، بيروت، لبنان، ص26-27، وينظر: مروج الذهب للمسعودي، دار الكتاب العالمية، بيروت، لبنان، ط1، ص32.

(6)دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه، محمد عبدالمنعم خفاجي، مطبعة دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1992، ج1، ص8.

(7)المصدر السابق، ض8-9.

(8)الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام، د. عبدالحميد محمود السلوت، الطبعة الأولى، 1973م، تحت عنوان (نظرية الانتحال)، ص216.

(9)قبحه وأدخله عليه أفة تعيبه.

(10)الغثاء: ما تحمله السيل من ورق الشجر البالي فهو ساقط لا خير فيه.

(11)الطبقات، لابن سلام، مصدر سابق، ص7-8.

(12)ابن سَلاّم الجُمَحي(150-232هـ)عالم بالأدب وأخبار العرب، وراوٍ معروف. كان ولاؤه لقدامة بن مَظْعون الجمحي، إضافة إلى أنه ولد في البصرة، ينظر الأعلام للزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط2، ج3، ص126.

(13)طبقات فحول الشعراء، تأليف: محمد بن سلام الجمحي، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر، ج1، القاهرة، 1980م، نشر مكتبة الثقافة الدينية، ص4.

(14)لسان العرب، لابن منظور، تحقيق: عبدالله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، طبع دار المعارف، مادة (ن ح ل).

(15)ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر، عالم الكتب القاهرة، 2008، مادة (ن ح ل).

(16)عبدالقاهر الجرجاني بن عبدالرحمن بن محمد الأشعري الشافعي أبوبكر، نحوي، بياني، فقيه، مفسر، متكلم له تصانيف كثيرة منها المغنى، إعجاز القرآن، أسرار البلاغة، ... توفى الجرجاني 471هـ، ينظر: معجم المؤلفين، ج5، 310.

(17)أسرار البلاغة، تأليف عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق: هـ ريتر، الطبعة الثالثة، 1983، دار المسيرة، بيروت، ص249.

(18)ديوان الفزردق، شرحهُ وقدّم له الأستاذ: علي فاغور، دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، ط1، 1987م، ص257.

(19)معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، تأليف مجدي وهبة، كامل المهندس، الطبعة الثانية، ص410.

(20)المعجم الوسيط، تأليف: د. إبراهيم أنيس، د. عبدالحليم منتصر، ج1، الطبعة الثانية، ص24.

(21)تاريخ النقد الأدبي، د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت 1986، الطبعة الخامسة، ص258.

(22)زهر الآداب، الحصري القيرواني، محمد بن سعد الشويعر، الدار العربية للكتاب ليبيا تونس، 1981، ص253.

(23) الطبقات، لأبن سلام، ج1، ص25-26.

(24)المفضل الضبي: هو المفضل بن محمد بن يعلي بن عامر الضبي، أبوالعباس (ت168هـ) رواية، علامة بالشعر، والأدب وأيام العرب، معاصر ومنافس لحماد الرواية، كان أول من جمع المعلقات السبع... لهُ المفضليات وهي مقالة لتدريس اليافع – المهدي بن المنصور.

ينظر: الفهرست، ابن النديم، دار المسيرة، بيروت، لبنان، ط3، 1988، ص68، كذلك ينظر: ياقوت الحموي، إرشاد الأديب إلى معرفة الأديب، ج7، ص171.

(25)حماد الرواية: أبوالقاسم حماد بن أبي ليلى سابور، المعروف بالرواية، قال ابن قتيبة، كان أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها، هو الذي جمع السبع الطوال فيما ذكرهُ بن النحاس، قيل أنه أنشد للوليد بن يزيد الأموي عن كل حرف مائة قصيدة، ينظر: وفيات الأعيان وأنباء الزمان، ابن خلكان، تحقيق د. يوسف علي طويل، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2012، ص176–180.

(26)الطبقات لابن سلام ، مصدر سابق ج1 /ص 48

(27)ديوان: ذي الرمة، شرح الخطيب التبريزي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1996، ص292.

(28)الأصمعي: عبدالملك بن قريب بن عبدالملك بن علي بن أصمع، قال المبّرد: كان الأصمعي انشد للشعر والمعاني وكان أبوعبيدة كذلك، لهُ من الكتب (الأجناس، الأنواء، الأضداد)، ينظر : الفهرست، ابن النديم، ج2، 760.

(29) ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم الدينوري أبومحمد، عالم مشارك في أنواع العلوم كاللغة والنحو والشعر والفقه، سكن بغداد، قاضي دينور، لهُ تصانيف كثيرة منها (غريب القرآن، المعاني، أدب الكاتب، والشعر والشعراء...، ينظر معجم المؤلفين، ص150.

(30)الموشح، للمرزباني، تحقيق: علي محمد البجاوي، طبع دار نهضة مصدر، بعنوان مأخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع في صناعة الشعر، ص141.

(31)الأدب الجاهلي بين الجاهلية والإسلام، د. عبد الحميد المسلوت، ص224، ط1، 1973ق، ينظر البيت، ديوان النابعة الذبياني، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط2، 1991، ص186..

(32)تاريخ آداب اللغة العربية، جرجى زيدان، المجلد الأول، طبع منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، ج2، لبنان، 1992م، ص416.

(33)الطبقات لابن سلام ، ج/1 ، ص4 .

(34)الطبقات، لابن سلام، ج1، ص16.

(35)أبوعمرو بن العلاء، تحقيق عبدالله محمد الأسطى، الطبعة الأولى، دار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلام، 1986، ص32.

(36)المصدر نفسه، ج1، ص48.

(37)ديوان الفرزق، شرح علي فاغور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1987، ص493.

(38)ديوان: لبيد بن ربيعة العامري، المكتبة الوقفية للكتب المصورة، دار صادر، بيروت، لبنان، لا ط، ص132.

(39)المصدر نفسه، ص199–200.

(40)العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، ج2، ص284.

(41)الطبقات، لابن سلام، ج1، ص48.

(42)الصورة الفنية في التراث النقدي البلاغي، جابر عصفور، دار المعارف مصر، ص282.

(43)الشعر والشعراء، ابن قتيبة، الدار العربية للكتاب، بيروت، لبنان، ط3، 1983، ج1، ص11.

(44)العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، أبوالحسن بن رشيق القيرواني، ج1، 307، 127.

(45)أسرار البلاغة، عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق: محمد عبدالمنعم خفاجي، عبدالعزيز شرف، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1991، ص310.

(46)عيار الشعر، ابن طباطبا العلوي، تح: محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر الإسكندرية، ص42.

(47)أبوهلال العسكري، الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري، لغوي، أديب، شاعر مفسر، من تصانيفه كتاب الصناعتين، جمهرة الأمثال ينظر معجم المؤلفين، ج3، ص240.

(48)كتاب الصناعتين، أبوهلال العسكري، تح محمد علي البجاوي، محمد أبوالفضل إبراهيم، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، لبنان، 1986، ص96.